الخطاب الإصلاحي عند بعض رجالات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
-خلال الفترة 1930-1945م-

The evolution of the reformist discourse in Algeria during the twentieth century

1.د. سليم مزهود . Dr. Salim Mezhoud ، المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف، ميلة Centre Uuniversitaire Abdelhafid Boussouf -Mila .
salimsimez@gmail.com

تاريخ الاستلام: 10 /فيفري/2021 تاريخ القبول: 21 /أفريل /2021

ملخص:

تميز المجتمع الجزائري، في القرن العشرين، بظهور الحركة الإصلاحية التي اكتسبت منذ الثلاثينيات، تأثيرًا اجتماعيًا ودينيًا كبيرًا في الأمة. إن حركة الإصلاح هذه هي بالأحرى تنظر إلى تاريخ عدّة أجيال من المساعي الإصلاحية والفكر التي ربما تأثرت، إلى حد ما بمصادر إلهام خارجية. يهدف هذا المقال إلى الكشف عن الانعكاس الإيجابي لكبار الشخصيات الإصلاحية في الجزائر مثل الشيخ عبد الحميد بن باديس ومبارك الميلي والإبراهيمي وغيرهم في نشأة الخطاب الإصلاحي ودوره في الإصلاح الاجتماعي في الجزائر من خلال البرامج الإصلاحية.
كلمات مفتاحية: الخطاب الإصلاحي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، استعمار ، ظروف اجتماعية.

Abstract:

Algerian society, in the twentieth century, was marked by the dawn of the reform movement that, since the 1930s, wich gained a great social and religious influence in the nation, as it is looks at the history of several generations of reform endeavors and ideology that may have been influenced, to some extent, by some outside sources of inspiration. This article aims to expose the positive reflection of prominent reformist figures in Algeria, such as Sheikh Abdelhamid Iben Badis, Mubarak El-Mili, El-Ibrahimi and others, in the evolution of the reformist discourse and its role in social reform in Algeria.
Keywords: *Reformist discourse, Association of Algerian Muslim Scholars, Colonialism, Social conditions.*

مقدمة:

الخطاب الإصلاحي هو كلام موجه لأفراد المجتمع من أجل تغيير الذهنيات المتوارثة نحو الأفضل، أو إقناعهم بفكرة جديدة ما، ودفعهم لما فيه خيرهم بما يحقق لهم الالتزام الديني والتربوي ويهذّب نفوسهم، ويعمل على الرقي بالمحيط الاجتماعي،

ولذلك اقترنت الحركة الإصلاحية الجزائرية بالنشاط الديني والتربوي والتهذيبي، منذ بذورها الأولى في بداية القرن العشرين،إلى تأسيسها العلني سنة 1931 على يد أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقيادة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

انطلاقا من فرضية نجاح الجمعية في تحقيق الكثير من أهدافها في المجال الإصلاحي الجماعي ضمن مؤسسة اجتماعية مدنية فرضت نفسها بالنشاط العلمي والديني والاجتماعي والخيري، بالرغم من الظروف الاستعمارية من جهة، وانتشار بعض مظاهر الشرك والتلاعب على العقول والتخريف باسم الدين، يكشف المقال باعتماد منهج وصفي عن ظروف نشأة الخطاب الإصلاحي الجزائري الذي تبنّته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خلال القرن العشرين الميلادي، بالرغم من الظروف السياسية والاجتماعية التي شكّلت تحديات كبرى أمام الجمعية.

1- الواقع الجزائري في ظل الحملات الاستعمارية :

1.1 الحياة السياسية والاجتماعية :

إن للجزائر موقعا إستراتيجيا دوليا متميزا، فهي البوابة الحصينة لقارة إفريقيا والوطن العربي، وهي سر من أسرار وحدة المسلمين في التصدي للهجمات الغربية وأطماعها، إذ (استطاعت الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر وبفضل امتلاكها أسطولا بحريا قويا أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية، وترغمها على دفع إتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها في حوض البحر الأبيض المتوسط، كما امتازت الجزائر بغنى اقتصادي كبير ثرواتها الزراعية والحيوانية)[1]، مما حرك أطماع الإسبانيين والانجليز والفرنسيين في الجزائر، فبعد (فشل الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر في أوت عام 1601م، التي وضع خطتها قرصان فرنسي اسمه روكي، أخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية، فرد الرياس الجزائريون بالمثل على السفن الفرنسية، لكن الجزائر تعرضت إلى حادث أليم فقدت بسببه نصف أسطولها البحري، في كارثة "لافلون"، فعندما استنجد الباب العالي بأسطول الجزائر لمساعدته في حروبه في منطقة البحر الأدرياتيكي بشرق المتوسط، ذهب علي بتشيني على رأس هذا الأسطول لكن العواصف الهوجاء اضطرته إلى الاحتماء ببعض موانئ إيطاليا: "لافلون"، إذ تعرض لهجوم غادر أدى إلى تحطيم نصف الأسطول، ومقتل كثير من قادته)[2]، واستمرت (محاولات الغرب للهجوم على الجزائر، وتحطيم قوتها العسكرية مستندين من ضعف الخلافة العثمانية المتزايد، والانقسامات المتعددة على المستوى الاجتماعي بالشمال الإفريقي عامة حيث أصبح يعيش حالة صراع مستمرة نتيجة لسوء تدبير الحكام وسياستهم القائمة على المصلحة الشخصية، واستطاعت الجزائر أن تتغلب على عجز الميزانية العامة نتيجة سياسة التقشف التي انتهجها الداي كما استطاعت تحرير المرسى الكبير ووهران من الاحتلال الإسباني)[3]، ولم تعد للخلافة العثمانية الضعيفة سلطة على الجزائر، لكن ظاهرة الاستبداد وسياسة الضرائب التي انتهجها الدايات قد عادت على الجزائر بالويلات والفتن الأهلية وسفك الدماء، وكثر التمرد ونهب الثورات على الحكم التركي المتعسف، إضافة إلى معاداة شيوخ الزوايا ومريدي الطرق للحكام بعد حرمانهم من الامتيازات والعطايا التي كانوا يحصلون عليها، وحدثت مجاعات من كثرة الأهوال والفتن اهتزاز المجتمع، وكثر قطاع الطرق، وارتفعت الأسعار بشرق البلاد نتيجة الجفاف الذي حل به، وانتشرت الأوبئة في عامة الجزائر، ونشأت طبقة

دخيلة بالبلاد غالبيتهم من الجالية اليهودية، وسيطر بوخريص وبوشناق اليهوديان على التجارة الخارجية الجزائرية للحبوب، وعملا على تذبذب العلاقات السياسية بين الجزائر وفرنسا، إذ أقنعا اليهوديان فرنسا بتجميد ديون الجزائر عليها، بالرغم من رسائل الداي إلى ملك فرنسا الذي لم يجب على تلك الرسائل، ليهين الداي إذ برر القنصل الفرنسي دوفال عدم إجابة الملك على رسائل الداي؛ أنه لا يجيب مَن دونه، فغضب الداي، وقال لدوفال اخرج يا ملعون مشيرا بمروحته إلى دوفال فلمست وجنته، فاتخذت فرنسا حادثة المروحة ذريعة لاحتلال الجزائر[4]

ولأن (الجزائر بهذه المكانة العظيمة، فقد كانت الحملة العسكرية الفرنسية على الجزائر بمثابة رهان على تشتيت صف المسلمين وتفريقهم)[5]

إن فرنسا طيلة سبعين عاما" 1830- 1900م" قد (نهبت الجزائريين وسلبتهم وطاردتهم وشردتهم لتعمر القطر الجزائري بالايطاليين والمالطيين والاسبانيين الذين جاءوا يحملون أهدافا متعددة، كان بعضهم بدافع المغامرة الاقتصادية، وكان البعض الآخر بحوافز وطنية واجتماعية وسياسية متعددة، ومن الثابت أن احتلال الجزائر لم يكن مجرد نزهة عسكرية لجيش الاحتلال، بل إن مقاومة الشعب الجزائري لهذا الغزو قد امتازت ببطولة نادرة، غير أن الشيء الذي لا سبيل إلى نكرانه، هو أن فرنسا كانت سنة 1830م قوية الجانب في الميدان العسكري، ومن الزيف العسكري والمتناقضات الصارخة أنهم يدعون أن الجزائر كانت جوهرة ضائعة ويصفونها بالتقدم في شتى المجالات الحضارية في آن واحد، لكن الهدف الذي كان نصب عين الاحتلال هو تأهيل الجزائر وتعميرها بمستوطنين أوروبيين يحلون محل الجزائريين، فاستمرت عملية الاستيطان الأوروبي في الجزائر من 1800م إلى 1947م)[6] .

واستمر الغزو الثقافي ومحاولة تحطيم الشخصية الوطنية، إذ (عزز الاحتلال غزوه العسكري للجزائر بغزو ثقافي فكري محاولة منه تحطيم الشخصية القومية للشعب الجزائري)[7]، وتعد (ثورة الأمير عبد القادر في وجه الحملة الفرنسية على الجزائر 1830-1847م، الوقفة العربية الأولى في وجه أول هجمة للأطماع الغربية في الوطن العربي)[8].

لقد عمل الاحتلال الفرنسي على (القضاء على معظم مراكز الثقافة العربية واللغة العربية التي تتمثل في المدارس والجوامع والزوايا التي كانت قائمة في البلاد قبل الاحتلال فحول بعضها إلى معاهد للثقافة الفرنسية وسلم بعضها إلى الهيئات التبشيرية المسيحية لنشاطها في هدم عقيدة الجزائريين وهد البعض الآخر بدعوى إعادة تخطيط المدن الجزائرية، فقبل عام1837م كان في قسنطينة وحدها ثلاثمائة مدرسة وزارية لم يبق منها بعد الاحتلال إلا ثلاثين مدرسة فقط، كما نهب الاحتلال التراث الثقافي العربي الإسلامي الذي عثر عليه في المكتبات الجزائرية مثل المحفوظات والوثائق والكتب في الفترة الممتدة بين 1830-1900م، فضلا عن المكتبات والكتب التي أحرقوها أو بعثروها كما فعلوا بمكتبة الأمير عبد القادر قائد المقاومة الجزائرية في سنوات الاحتلال "1832-1847"، بعد أن أسره الاحتلال الفرنسي عام 1847م) [9] .

ومنذ ذلك العام (خضعت الجزائر لقوانين الأنديجينا CODE DE L'INDIGNE؛ القوانين الاستثنائية الخاصة بالسكان الوطنيين، وأهمها أن للحاكم سلطة في توقيع العقوبات على الجزائريين دونما محاكمة من أجل الحفاظ على الأمن العام، وفرض عقوبات جماعية صارمة على المنطقة التي تحدث فيها جريمة ما، باعتبار أن سكان تلك المنطقة مسؤولون مسؤولية جماعية عن الجريمة...) [10]

لقد كان الاحتلال ينهش لحم الأمة بالسلب والنهب بكل المعاني التي يحملها اللفظان، إذ (كان الاحتلال يستعمل في ذلك أرفع النظريات العلمية لأحط غاياته وأهدافه)[11]، ومن ذلك أن (مارست فرنسا سياسة الإبادة الجماعية للجزائريين)[12]،

أما من الناحية الاقتصادية فقد وعاش المجتمع الجزائري أسوا مظاهر الفقر والحرمان، إبان الاحتلال الفرنسي لاسيما في سنوات الثلاثينيات، وقد صور مترجم الإدارة الفرنسية غورجو هذه المأساة بالقول: (إننا لا يمكننا أن نتصور حالة الفقر والحرمان الشنيعين التي يتخبط فيها الجزء الكبير من الأسر في القبائل من أقصى الجزائر إلى أقصاها الآخر)[13]، وأصبح (المستوطنون يسيطرون على معظم الأراضي وجميع وسائل الإنتاج (عمل الاحتلال من الناحية الثقافية على تحطيم المدارس وتحويل المساجد إلى كنائس تمارس فيها الطقوس المسيحية، فانحط المستوى العلمي انحطاطا كبيرا، وحاولت السلطات الفرنسية أن تعوض هذه الكتاتيب بالمدارس الابتدائية، لكن تلك المدارس لم تف بحاجات الراغبين في التعليم، إذ لم يكن عدد التلاميذ أكثر من ستين ألف من مجموع سبعمائة وخمسين ألف طفل في سن التعليم، إذ إن التعليم في هذه المدارس لم يكن قوميا ولا وطنيا ولا دينيا إسلاميا، بل إنهم كانوا يدرسون تاريخ عظماء فرنسا)[14]، فانتشرت (الأمية بين مختلف طبقات الشعب، ولم تتجاوز نسبة التعليم 8 % بين أطفال الجزائر في المدارس التابعة لحكومة الاحتلال من عدد الأطفال الذين هم في سن الدراسة الابتدائية)[15]، مما يفسر محاولة الإدارة الفرنسية طمس الشخصية الجزائرية الوطنية، والعمل على عزل الوطنيين عن العالم الخارجي، فكان هذا سببا رئيسا في ظهور بعض المتنورين الجزائريين من ذوي الثقافة العربية من جهة، والثقافة الغربية من جهة أخرى، وكان أولئك العلماء (المتنورون هم العلماء المصلحون الذين قضوا زهرة شبابهم في الحجاز وسوريا وتونس ومصر... عادوا إلى الوطن، وعملوا على توحيد الجهود، وتكتيل القوى الحرة للقضاء على كل مظهر من مظاهر الانحراف التي تخدم الاستعمار وتساعده على البقاء في الجزائر على حساب الشخصية الوطنية، فكانوا هم الذين أحيوا حقيقة الإسلام بالجزائر باثين فيه وعيا دينيا وقوميا)[16]

2.1 الحياة الدينية :

كانت بداية الصوفية في الجزائر إيجابية، حيث اتسمت (منذ بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر بالمحافظة على الإسلام والتراث العربي ونشر الثقافة العربية الإسلامية والرياضة الروحية، وقام بعض رجال الصوفية بمواجهة الاحتلال، إذ إن معظم الثورات خلال القرن التاسع عشر ضد الحكم الفرنسي في الجزائر كانت قد أعدت ونظمت ونفذت بوحي من الزوايا، وقد كان الأمير عبد القادر أحد رجالاتها، حيث انتسب إلى الطريقة القادرية وهكذا كانت الزوايا الصالحة في الجزائر مصدرا للعلم والهداية، وحماية الدين والصلاح، ومنبع اليقظة والنهضة... وعونا للإصلاح، ومنبتا لثورات عديدة في الجزائر على الاستعمار)[17]

لكن إذا (كانت بعض الزوايا رمزا للعلم والدين، والجهاد ضد الغزاة الأجانب، فإن بعضها سرعان ما انحرف عن مبادئها وأهدافها، وانضم إلى الزوايا الفاسدة مع سقوط البلاد تحت وطأة الاستعمار، وأضحى عميلا للاحتلال ومعينا له على الجزائريين، وتحول جلها إلى إفساد العقائد ونشر الخرافات والأباطيل، ففرقت وحدة الأمة وتماسكها الاجتماعي حتى أصبحت الجماهير الجاهلة تعتقد في شيوخ الطرق الصوفية بأنهم القابضون لأرواح البشر، وهنا تدخل الزاوية في مرحلتها الثانية، وكانت غاية هذه الزوايا هي الاهتمام بجموع الفقراء المنتشرين في المساجد والزوايا وإصلاح حالهم، وقد كانت بعض الزوايا تنشر عقائد مخالفة للدين)[18]

ومن ذلك أنْ (كان شيخ الزاوية يوحي لأتباعه بأن قراءة "صلاة الفاتح" أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة، ويزعمون أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثواب إلا لمن اعتقد أنها كذلك، وأن صلاة الفاتح علمها النبي لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره، وأن مؤسس الطريقة أفضل الأولياء)[19]

وزعم بعض الطرقيين أن (كل من انتسب إلى تلك الطريقة يدخل الجنة بغير حساب... إلى آخره من الخرافات والأباطيل التي لا تخرج في معناها على الكفر والإلحاد، ولا يصدقها العقل، وظلت الطرق الصوفية في هدوء

ظاهري تام تسيطر على الحياة الدينية والاجتماعية، وإذا كانت الثورات الشعبية ضد الحكم الفرنسي في الجزائر إبان القرن التاسع عشر قد نظمت ونفذت بوحي من بعض هذه الطرق، فإن المنحرفة منها أصبحت بعد حين من الدهر أداة طيعة في يد الإدارة الاستعمارية، والحرس الأمين على المصالح الفرنسية، حتى صار "الكولون" يَعتبرون رجالَها الممثلين الحقيقيين للإسلام الصحيح المتسامح بالمقارنة مع طائفة العلماء، رغم أن الطرق الصوفية هي التي نشرت في الإسلام تقديس الأولياء بما نسبت لبعض الشخصيات من نفوذ خارق للعادة، وهو التقديس الذي حل في الغالب محل عبادة الآلهة القديمة)[20]

إن كلا من الاحتلال الفرنسي والصوفية الجديدة التي انحرفت عن دين الحق إلى دين الباطل، قد عمل على تجهيل الشعب ونشر الأمية، إذ (كان من أهداف الاستعمار القضاء على الدين والأخلاق الفاضلة، وكل المقومات الحضارية للشعب الجزائري، ووجد في الزوايا ضالته المنشودة يسخرها لتحقيق أغراضه، وتنفيذ مشاريعه ... فكان - بذلك- العدوّ الأول في الجزائر بعد الاستعمار هم الطرق الصوفية، الذين استنزفوا باسم الدين كل الطاقات الفكرية والمادية للشعب الجزائري الواقع بين مخالب الاستعمار)[21]

لكن حال الجزائريين المسلمين منذ القرن الثامن عشر كانت تدعو إلى الأسى والأسف، لبعد المجتمع الجزائري عن أساس الإسلام وعن أصوله العميقة، ونقصد بذلك بعدهم عن التوحيد، ولعل ذلك راجع إلى ما كانت عليه الأمة العربية والإسلامية من انحطاط في دينها، قال المؤرخ الكبير لوثروب ستودارد في كتابه "حاضر العالم الإسلامي": ("في القرن الثامن عشر كان العالم الإسلامي قد بلغ من التضعضع أعظم مبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمق دَرَكَة ، فالدين قد غشيته غاشية سوداء، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة سجناً من الخرافات وقشور الصوفية، وكثر عديد الأدعياء والجهلاء)[22]

2. عوامل ظهور الخطاب الإصلاحي وتطوره :

هناك جملة من العوامل ساعدت على ظهور الخطاب الإصلاحي في الجزائر وتطوره، يمكن تصنيفها ضمن قسمين رئيسين:

1.2 العوامل الخارجية :

العوامل الخارجية التي أسهمت بشكل واضح في ظهور الخطاب الإصلاحية هي العوامل الإسلامية والعالمية التي تمثلت في (حركة الفكر المتطورة التي برزت في شتى أنحاء العالم أثناء الحرب العالمية الأولى، إذ كان لها الدور الكبير في ظهور هذا الخطاب)[23]، ونتجت هذه الحركة الفكرية عن (اليقظة العامة التي دبت في أرجاء العالم الإسلامي والعربي ومن بينها الجزائر، نتيجة احتكاكه بأوربا ثقافيا وسياسيا وعسكريا، ابتداء من النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ودبت تلك اليقظة في الشعب الجزائري نتيجة للحرب العالمية الأولى، وتطلع الجزائريين إلى الإصلاح الشامل الذي ينهض بهم دينيا واجتماعيا وثقافيا، وسياسيا من الوضعية السيئة التي كانوا عليها قبل بداية الحرب)[24]، حيث شهدت سنة (1918م تطورا عميقا في العالم الإسلامي خاصة تركيا ومصر، ويرجع هذا التطور إلى أوضاع اقتصادية وسياسية جديدة، أما في الجزائر فقد تميزت هذه السنة بانتشار التعليم سواء باللغة العربية أوالفرنسية وكذا التعليم الإسلامي، وأبدى الشباب ميلا إلى المدارس والكليات الفرنسية)[25]

وبانتشار التعليم انتشر الوعي، ومن ثم فقد (بزغ فجر الحركة الإصلاحية في الشرق الأدنى، وأخذ المثقفون في العالم الإسلامي يتطلعون إلى مبادئها وأهدافها، ومن ثَمَّ فقد انجذب بعض علماء الجزائر إلى هذا الاتجاه الجديد، وحاولوا تطبيقه من أجل إصلاح المجتمع الذي عرف انحطاطا خلقيا وجفافا ثقافيا، كما أن ظهور الشيخ محمد عبده زعيم الحركة الإصلاحية في الشرق الأدنى كان له تأثير إيجابي واضح على أفكار المثقفين الجزائريين أكثر من غيره

من المصلحين المعاصرين، على أن الفضل بعده قد أحرزه رشيد رضا، وقد استطاع الشيخ محمد عبده بحركته الإصلاحية التي زرع بذرتها في العالم الإسلامي أن يعيد لأذهان الجزائريين فضل الإسلام المعاصر، ونتائج جهود الجماعة الإسلامية على مرّ السنين والعصور، ولاسيما أن دعوته لم تجد في العالم الإسلامي صدى ما وجدته في الجزائر بسبب الأوضاع المأسوية التي كانت تعاني منها الجماهير الجزائرية)[26].

وشهدت الجزائر في عام (1903م زيارة الشيخ محمد عبده التاريخية)[27]، فكان لتلك الزيارة الأثر البالغ في نفوس الجزائريين الذين كانوا في حاجة ماسة إلى فكرة رشيدة ترشدهم إلى طريق الحق، طريق الإصلاح فعمقت تلك الزيارة (أفكار الإصلاح بصورة مباشرة في نفوس المثقفين الجزائريين، الذين أصبحوا يعملون على استنباط البعد الحقيقي للأخذ بهذه الفكرة الإصلاحية الحديثة)[28]

إن تلك (الزيارة الشخصية للشيخ محمد عبده كانت كفيلة بتعزيز بدايات النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر ، والوصول بها إلى حد الحزب الديني المصلح، حتى إن الشيخ رشيد رضا قال -وهو يؤرخ لزيارة الإمام محمد عبده أقطار المغرب العربي في مستهل القرن العشرين-: "وقد وجد له في تونس والجزائر حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم")[29]

وكانت تلك (الآثار الإصلاحية التي أبدعها الشيخ محمد عبده، وأفكاره تتسرب إلى الجزائر عن طريق مجلة المنار)[30]، فكان (محمد عبده الرجل الذي أوقد في أوساط المثقفين التقليديين في الجزائر شعلة الإسلام وجسد روحه في الدعوة إلى ثورة فكرية، تزعزع أركان الجهل وتقضي على مصادر الجمود، ذلك أنه قد دعا المسلمين للرجوع إلى بساطة الإسلام الأولى، والتأمل من منبعي الدين اللذين مازالا على حيويتهما وهما: القرآن والسنة وعمل على التوفيق بين الدين والعلم الحديث، فبين أن الحقائق التي جاء بها العلم الحديث لا تتناقض والقرآن)[31]

إن أهم العوامل التي ساعدت على ظهور الخطاب الإصلاحي هي بروز (أفكار المصلحين الأولين ولاسيما جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في الإصلاح العلمي والديني حين دعا المسلمين في مشارق المعمورة ومغاربها للرجوع إلى منابع الإسلام الصافية الصحيحة، ويشارك الشيخ رشيد رضا الشيخين الأفغاني ومحمد عبده، في تلك الأفكار الإصلاحية، إذ إن الشيخ رشيد رضا (قد ثار على الأوضاع الاجتماعية والدينية المتردية، ومزق ضباب الخرافات والبدع التي أحاقت بالدين نتيجة لأعمال الزوايا والطرق الصوفية المنحرفة عن الإسلام الصحيح)[32]

وإذا كان بعض الباحثين يربطون الحركة الإصلاحية بمصادر شرقية باعتبار أن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده من الرواد الأوائل، فإن ابن نبي يذهب بها إلى أبعد من ذلك، (فهو يرجعها إلى الوهابية التي هي ثمرة تعاقب المصلحين منذ ابن تيمية في القرن الثامن للهجرة، وكان من حسن حظ الأفغاني أن فكرته في النهوض بعثت الحركة في كل مكان، وكشفت عن الشعوب الإسلامية غطاءها؛ ولقد بلغ تأثير تلك القوة الفعالة الجزائر، فأخذت منها بنصيب، ورأى ابن نبي أن الفكرة الوهابية هي من أنقذت العالم الإسلامي، وقد اضطلع بهذه الحركة في بداية الأمر علماء جزائريون من بينهم: مفتي مدينة قسنطينة الشيخ المولود بن الموهوب تلميذ عبد القادر المجاوي والشيخ مبارك الميلي، وأبو يعلى الزواوي، والشيخ عبد المجيد بن بريد حم بستانجي... واستطاع الشيخ مولود بن الموهوب أن يكشف لأجيال المدرسيين أفكار الإصلاح التي وجدوا أنفسهم بها بعد، منخرطين في الحركة الإصلاحية الناشئة بالجزائر) [33]

ومن العوامل ظهور الخطاب الإصلاحي أيضا: (عودة أبناء الجزائر المخلصين من الحجاز منبع الإسلام ومنبت الدعوة إلى الإصلاح الإنساني، بعد أن تشبعوا بالأفكار الناضجة الحديثة هناك، واختمرت في أفكارهم وعقولهم، وتأثروا بها، وعادوا إلى أرض الوطن يحملون معهم هذه الأفكار الجديدة)[34]، وإن هذه الفئة التي رجعت من الحجاز بالهدي المحمدي الكامل، قد تأثرت بالإصلاح تأثرا مباشرا، مستمدا قوته وحرارته من كلام الله وسنة رسوله مباشرة،

ولم تكن قط متأثرة بحال غالبة في الحجاز، فلم يكن للإصلاح في ذلك الوقت شأن يذكر في الحجاز إلا في مجالس محدودة، وعند علماء معدودين، حيث أوضح الشيخ الإبراهيمي خطر حال الحجاز بالنسبة لأمر دينها، إذ بدأ الشرك ينتشر فيها، وابتعدت عن الإصلاح في مجالسها إلا قليلا، فقال: ("ولو شاء ربك لرمي الجزائر بقافلة من الحجاز مضللة، تتخذ من حرم الجوار شركا جديدا، وتجعل منه غُلا في الأعناق شديدا، كما رماها بطائفة من الأزهريين الجامدين فزادها قرحا على قرح")[35]

كما كان لجامع الزيتونة وجامع الأزهر فضلا كبيرا على الحركة الفكرية في الجزائر، وقد أبرز الشيخ مبارك الميلي فضل الزيتونة العام على جميع المعاهد في المشرق والمغرب، وفضلها الخاص على أبناء الجزائر، ويؤكد شرف الانتساب إلى هذا المعلم، ويعبر عن مسؤوليته، ومسؤولية كل خريجي هذا المعهد تجاه كل نشاط تقوم به الزيتونة قائلا بهذا الصدد: ("جامع الزيتونة أقدم الكليات الإسلامية الثلاث، ومنه انبعث الضوء نحو المغرب فتأسس بفاس جامع القرويين، ثم انفصل منه نور نحو المشرق ازدهر بالقاهرة فكان الجامع الأزهر، فلجامع الزيتونة الفضل العام على العالم الإسلامي في حياته الفكرية ثم له علينا الفضل بصفة خاصة، انتفعنا بما كتب لنا من علوم الدين وسائله، لذلك تجدنا نهوى جامع الزيتونة ونعرف له منزلته، فيسوؤنا ويضعفنا كل ما ينتابه من خلل، ويسرنا ويشرفنا كل ما يدركه من شرف")[36]

2.2 العوامل الداخلية :

أهم العوامل الجزائرية الداخلية التي أسهمت في ظهور الخطاب الإصلاحي؛ هي: (محاولة الاستعمار الفرنسي القضاء على الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، ونشاط حركات التبشير المسيحي المحمية من طرف الاستعمار في العمل على تنصير أبناء وبنات الجزائر، وسياسة الفرنسة، والتجنيس التي أرادت دولة الاحتلال فرضها على الجزائريين، ومن ثم رأى المصلحون في الجزائر ضرورة (المحافظة على الشخصية الجزائرية التي أصبحت مهددة بالخطر من طرف الاستعمار وعملائه من دعاة الفرنسة والاندماج والتغريب)[37]، خاصة بعد احتفال الفرنسيين بمرور مائة عام على احتلالهم الجزائر ، وكانت لهذه الاحتفالات الفرنسية سنة 1930م نتائج هامة على اتجاه الحركة الوطنية ، كما أنها أثارت بحدة شعور الوطنيين بالإهانة... فقد كانت تلك الاحتفالات تصرّح بالعبارات العدائية التي تجعل الجزائريين يشعرون بالذل والإهانة في وطنهم، ومن أمثلة تلك الإهانات أنْ كتبت إحدى المجلات الفرنسية: ("إننا معشر الفرنسيين في بلادنا هنا، في الجزائر، قد استحوذنا على هذه البلاد، وبسطنا سلطاننا عليها بالحديد والنار، إذ لا ينجح أي احتلال إلا بالقوة... ولما كبحنا جماح الشعب الجزائري استطعنا أن ننظم البلاد، وهذا التنظيم نفسه يقيم الدليل على تفوق الغالب على المغلوب؛ أي تفوق الرجل المتمدن على الرجل المتخلف، فأصبحنا أصحاب البلاد الشرعيين")[38]، ثم إن مرور هذا القرن من الزمن على احتلال فرنسا للجزائر سنة 1930م، جعل العلماء الجزائريين يتسارعون إلى جمع كلمة الأمة في تنظيم ديني وثقافي واجتماعي ففي (غضون الحرب العالمية الأولى رأت هذه النخبة المثقفة الانحطاطَ الذي وصل إليه الإسلام في الجزائر بسبب الضعف الذي أصاب المسلمين، ففكرت بتأسيس منظمة إسلامية لإحياء الدين، ولكن خروج هذه الفكرة إلى عالم الوجود لم يتحقق إلا في يوم 5 مايو 1931م)[39]، وهكذا فإن ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد نتج عن رغبة العلماء المسلمين الجزائريين بنهضة الأمة الجزائرية ورقيها الفكري والحضاري، ومحاولة منهم للحفاظ على الهوية وترسيخ العقيدة والقيم الأخلاقية في المجتمع الجزائري، ونشر المعرفة والعلم، ولعل التعليم هو العنصر الأقوى في محاربة البدع والخرافات، إذ بالتعليم يتنور الفرد المتعلم ويزداد تمييزه بين الحق والباطل، و(بالرغم من أن الجمعية قد تعرضت لصعوبات

كثيرة بسبب محاربة المستعمِر لها وتضييقه على علمائها، إلا أنها نجحت في تكوين أجيال جزائرية تؤمن بعروبتها وإسلامها، وتحافظ على هويتها وانتمائها إلى عالمها العربي والإسلامي)[40]

وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (هي حركة عربية إسلامية إصلاحية تلتقي في أهدافها البعيدة من الناحية الوطنية مع حركة نجم شمال إفريقيا وحزب الشعب الجزائري، في الدعوة إلى تحرير الجزائر ضمن نطاق الحضارة العربية الإسلامية، ومن الناحية الإصلاحية تلتقي مع مدرسة التجديد الإسلامي التي ظهرت في العلم الإسلامي في القرن التاسع)[41]، وبهذا يمكننا القول إنّ فترة الثلاثينيات قد (كانت الفترة الخصبة بالنسبة للإصلاح)[42].

وما زالت دعوة الجمعية تشمل العودة إلى منابع الإسلام الصافية المتمثلة في الكتاب والسنة وسلوك السلف الصالح والثورة على الجمود الفكري والبدع والخرافات ومحاربة الجهل والظلم والاستغلال، إذ حرصت الجمعية على تحقيق جملة من الأهداف تتلخص في: (محاربة الجهل بمختلف أشكاله وتطهير البلاد من البدع والخرافات التي أحاقت بالدين وخدمة العلم والمسلمين الجزائريين؛ ولهذا تأسست الجمعية)[43]

إن (لجمعية العلماء أثرا خالدا في النهضة العلمية وبث روح الثقافة في النشء وفي إحياء معالم التاريخ الجزائري، وفي معالجة المجتمع علاجا مباشرا، ولكن العراقيل الاستعمارية للجمعية خلال الثلاثينيات قد شغلتها عن القيام بمشاريع عملية هامة لصالح الوطنيين رغم أنها قد أحرزت نجاحا كبيرا في أوساط الجزائريين، لكن الحركة الإصلاحية ليست هي في الواقع جمعية العلماء، لأن الحركة الإصلاحية أعم وأشمل وأسبق من جمعية العلماء، وإن كانت الأخيرة نتاجا للأولى، لأنه بعد قيام جمعية العلماء وظهورها كمنظمة قوية، لم يكن جميع المصلحين قد انضموا إليها بل إن بعضهم ظل خارجا عنها، والبعض الآخر قد خرج منها مثل الطيب العقبي...)[44]

كما كان (للشيخ عبد الحميد بن باديس دور جليل هو الآخر في نشأة الخطاب الإصلاحي، بسبب انطلاقته الكبرى والقوية في التعليم وإلقاء الدروس على العامة من الناس، لتوعيتهم بأمور دينهم وتحسين لغتهم العربية)[45]، وقد (ألقى دروسه لعدة سنوات في الجامع الأخضر بقسنطينة داعيا إلى الإصلاح، ونبذ البدع، ومقاومة الخرافات والجمود، وتحرير الفكر الجزائري من سيطرتهما)[46]

وتدخل في عوامل نشأة هذا الخطاب أيضا الحركات الصوفية التي زادت من نشاطها، مكتسحة بفكرها الصوفي الخرافي جميع المدن الجزائرية، ومعظم أرياف الجزائر وقراها، فزعمت معرفة الغيب من باب الكرامات فامتصت مالَ كثير من الجزائريين موهمة إياهم بخدمة الدين والعقيدة، وإنما كان ذلك تخديرا منها لعقول الناس وخدمة لمصالح الصوفيين المرتزقة، قال الشيخ مبارك الميلي: "نقول إن المسلمين قد عمهم الجهل وفشا بينهم الدجل وانتشرت فيهم البدع والمعاصي وكثفت غفلتهم عن يوم الأخذ بالنواصي"[47]، بسبب (انحراف معظم الطرق الصوفية في الجزائر عن جادة الإسلام القويمة حيث أكثروا من البدع في الدين، بل وتعاون معظمهم مع الإدارة الاستعمارية ضد مصالح بلادهم العليا)[48]، كما قابلهم الاحتلال بالمثل، إذ كان (الاحتلال الفرنسي يشجع هؤلاء الصوفيين)[49]، الذين مثلوا الدين برقصات وشطحات تهول بها العقول وتفقد بها السيطرة على الأجساد بممارسات فلكلورية راقصة.

وهكذا شاع الجهل في أوساط المتفيقهين والصوفيين المثقفين بثقافة الهوس الديني، وشاع الجهل والأمية أيضا في محيط العامة من المجتمع الجزائري، حتى قال الأستاذ بجامعة الرباط محمّد إبراهيم الكتّانيّ رحمه الله لما فرغ من زيارة الجزائر: ("شاهدت من تعاسة المسلمين ودينهم ولغتهم ما لم أكن أتصوّر أنّ الحالة وصلت إلى معشاره: جهل باللّغة العربيّة فظيع، وطمْس لمعالم الدّين شنيع...")[50]، إضافة إلى ما كان يعانيه المجتمع الجزائري في ذلك الوقت من عسر المعاش، وتضور الناس جوعا، حيث عاش المجتمع الجزائري المعاناة بكامل معانيها، وقد عبرت جريدة

عربية عن حال الجزائريين بقولها: ("أي قلب حر لا تدميه الحالة التي نحن فيها اليوم، جهالة سوداء، فتعاسة ففقر مدقع فافتراق فذهاب إلى هاوية الاضمحلال")[51]

لقد (مضى على هذه الأمة اليائسة أحقاب طوال، كانت تتخبط في ظلام من الحيرة كثيف، لا ترى في تلك الأجواء المدلهمة الحالكة إلا غيوما من الأوهام متراكمة، وسحبا من الخيالات منتشرة... لا تدري وسيلة تقربها إلى ربها، غير الفزع إلى سكان القبور، ومستعمري الأضرحة، وإذا شعرت بضر مسها هرعت إلى الجدران والأنقاض البالية، والمياه المتحجرة في الحفائر وألوان شتى من الأحجار والأشجار والجذوع والتماثيل داعية لها، أن تكشف ما بها من ضر، تاركة الاهتداء بكتاب ربها الذي أضحى مقصورا على التعاويذ والرقيات)[52]

وبالرغم من تلك الظروف الخانقة التي حلّت بالمجتمع الجزائري، وجعلته خاضعا للاحتلال الفرنسي ولأوهام الطرقيين المبتدعة، وكبلت العقيدة الإسلامية الصحيحة، وأحلت مكانها الخرافات والبدع والشعوذة باسم الدين، إلا أن ظهور الخطاب الإصلاحي يبعث الأمل والتفاؤل في زمن اليأس، بالرغم من الآلام والمآسي وضيق الأزمة، لكنها الأزمة إذا اشتدت فرجت، إذ تحرك مع هذه الظروف القاسية الضمير الإصلاحي عند العلماء المسلمين الجزائريين، فكان خطابهم الإصلاحي يشعل نور الأمل في ظلمة الليلة الحالكة.

في ظل هذه الأوضاع عرفت الجزائر في العشرينيات من القرن العشرين حركات إصلاحية تبشر بالفجر الباسم، والنهضة العلمية والأدبية، فبدأ الخطاب الإصلاحي يعلي صوته هادفا إلى إعادة صياغة العقل الجزائري وإحياء الضمائر، وكانت المبادئ التي سار عليها الخطاب الإصلاحي الوسيلة الناجعة لإنقاذ المجتمع الجزائري من مظاهر الشرك وضلالاته، ومخالب الجهل والفكر الصوفي وانحرافاته.

3. جهود الخطاب الإصلاحي في الجزائر وتأسيسه :

اجتاحت فرنسا بلاد الجزائر -كما نعلم- اجتياحا عسكريا سنة 1830م مستغلّة في ذلك حال الضعف التي أصابت البلاد، وهكذا حتى وقعت تحت الاحتلال الفرنسي مكرهة، ثم أصدرت فرنسا سنة 1834م أمرا بجعل الجزائر قطعة فرنسية، وبهذا الأمر أرادت فرنسا أن تطمس هوية الأمة الجزائرية العربية الإسلامية، ليصبح الشعب الجزائري تابعا ذليلا للثقافة الفرنسية الجزائر، إن لم نقل عبدا يخدم المصالح الفرنسية، حتى أوهم الفرنسيون الرأي العام العالمي أن (الجزائر تخضع للسيطرة الفرنسية المباشرة، بل وتعتبر الجزائر في حيثيات القانون المكتوب من الوجهة النظرية جزءا لا يتجزأ من الوطن الفرنسي، وبعيدة عن المشرق العربي مهد الإسلام ومنبت فكرة الإصلاح الناضجة)[53]

ولأن في الناس الجبن كما فيهم الشجاعة، وفيهم الثبات كما فيهم التردد، وفيهم الإخلاص كما فيهم الخيانة، وفيهم الصبر والتأني كما فيهم الاستسلام والتسرع، لم يخل المجتمع الجزائري من هذه الصفات جميعا، فلا يزال الناس مختلفين حتى يوم القيامة كما أخبر الله عز وجل بذلك في القرآن الكريم، ومن ثَمّ فقد عانت الجزائر من خيانة بعض أبنائها بسبب جبنهم، حين باعوا دينهم وتخلوا عن ثوابتهم بعرض من الدنيا قليل، و(راحوا يشيعون بين الناس الفتن من البدع والخرافات التي استحدثوها باسم الدين، وهي أبعد ما تكون عن الدين الحق، فدبّ اليأس والقنوط والتواكل في المجتمع الجزائري بسبب تلك الأفكار الغريبة عن تعاليم الدين الإسلامي التي تبثها الصوفية المنحرفة بين الناس، من وحي أطماعها الدنيوية، ووحي شياطينها الذين تربوا على عرش البدع والشعوذة)[54]، في وقت يغرق فيه (المجتمع الجزائري في أزمة الفقر الروحي الاقتصادي)[55]، رغم ما يملكه من خيرات الأرض التي تؤمّن جوعه، ومن أصول العقيدة التي تريح نفسه وتجعلها مطمئنة طيبة، ولكن الخالق لا يضّيع أحدا من خلقه، فقد شاء الله تعالى أن يبعث في كل أمة من يحي العقيدة ويزرع الأمل، ويصلح ما أفسده المفسدون فظهر الدعاة الصادقون من علماء هذه الأمة المباركة، دعاة الإصلاح في الجزائر، هم من أهل الحق فقد تمسكوا بالشريعة الإسلامية التي لم تمر عبر

مصفاة المصالح الدنيوية، التي تغربل كل ما يعطل مصالحها، ثم تزيد فيها بهارات البدع والفتن والخرافات، إذ ظهرت العديد من مبادرات الإصلاح الديني في الجزائر ففي (عشية الحرب العالمية الأولى، سافر جماعة من العلماء الشباب في الجزائر، إلى تونس والمغرب وأرض الحجاز والشام، لتكوين ثقافتهم العربية الإسلامية في معاهدَ مختصةٍ، ومن بينهم عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والطيب العقبي، وقد تأثر هؤلاء جميعا بالأفكار الإصلاحية)[56]، التي كان من روادها -إذ ذاك– الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، وإثر عودة هؤلاء العلماء الشباب إلى الجزائر هموا إلى طريق الإصلاح ينشرون الوعي بين أفراد المجتمع الجزائري، ويحاربون البدع، واتخذوا الإعلام والمدارس والمنتديات وسيلتهم في ذلك، حتى اهتدى بهم الحال إلى إنشاء جمعية تكون منبرا لأفكارهم الإصلاحية وتوحد جهودهم في صف واحد، وأسموها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[57]، إذ تشكلت هذه الجمعية في: (شهر مايو 1931م بالجزائر العاصمة، وانتُخب الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيسا لها، الذي استطاع أن يفرض شخصيته بالمعرفة والسلوك، وبعد ذلك نجد "المُرابطين" ينسحبون من هذه الجمعية ليكونوا جمعية علماء السنة... وهكذا تأسست حركة إصلاحية، فكان الشيخ عبد الحميد بن باديس هو الرئيسَ، بجانب مساعديه المثقفين من العرب في مقاطعة قسنطينة، وهم: البشير الإبراهيمي، العربي التبسي ومبارك الميلي في المرتبة الأولى، أما الذين يسكنون الجزائر العاصمة، فهم: الأمين العمودي، الطيب العقبي)[58].

وفي تلك الأثناء كانت الجزائر (في حاجة إلى وقت كاف لنضوج الدعوة الإصلاحية وتغلغلها في أوساط جماعة المثقفين الجزائريين، والجماهير التي غلب عليها اليأس واستسلمت للقضاء والقدر، لأن القيام بإصلاح حالة الفرد الاجتماعية والدينية، يتطلب من زعماء الأمة أن يهيئوا قدرا كبيرا من وسائل القوة، والدعاية الشاملة والارتواء من مناهل العرفان، والرسوخ في مكارم الأخلاق، وتوفير الأيدي العاملة لكسب الأرزاق، والعمل على خلق الوحدة بين الجماهير الشعبية. وهذه العوامل كلها ضرورية من أجل القيام بحركة إصلاحية شاملة وناجحة)[59]

لقد ظهرت الفكرة الإصلاحية (حوالي 1925م، بفضل شخصية عبد الحميد بن باديس الذي نفذ إشعاعه إلى الضمير الشعبي... فاستطاع في ظرف قصير أن يقضي على القيود المتمثلة في التقاليد الزائفة المتجسدة في الطريقة المرابطية، وانطلقت الأفكار، ثم تلاقت وتصارعت على حد تعبير ابن نبي... فتحولت أحيانا إلى صورة مدرسة أو مسجد أو مؤسسة إصلاحية، وظهرت النظريات الاجتماعية... فكانت النتيجة أن أصبح هذا يرنو إلى المذهب الكمالي، وذاك يأخذ بالمذهب الوهابي، وذلك ينزع على التمدن الغربي، ومنهم من انحدر بفكره إلى مذهب المادة ، وكل واحد من هؤلاء وأولئك يتخذ ملبسا يعبر عن نزعة تفكيره)[60]، وكان نادي الترقي الذي أنشأه العلماء الجزائريون سنة 1926م، ملتقى يعلن عن ميلاد هذا الخطاب قبل إنشاء جمعية العلماء، وكذا إنشاء الصحف، وكان نادي الترقي بمثابة ملتقى فكري لأولئك العلماء، ولكل مفكر جزائري، وغدت تلقى فيه المحاضرات الفكرية والدروس الدينية، فكان أولئك العلماء الجزائريون (من رجال الإصلاح الذين احتذوا في دعوتهم سنة الرسول الأعظم، و"عرضوا أنفسهم لكل ما تعرض له من مكاره فصبروا وصابروا وبلغوا الغاية المنشودة" كما يقول الشيخ محمد الصالح النيفر حسب ما أوردته مجلة الزيتونة، فأصبح من آثار هؤلاء العلماء في الجزائر: عمل صالح ونهضة إسلامية مباركة، تقود زمامها وتتولى أمرها جمعية جمعية العلماء المسلمين الزاهرة، فلقد نهض الشيخ ابن باديس رحمه الله وصحبه الأكرمون نهضة سليمة مباركة الطلعة ميمونة النقيبة، ونشروا صيحة داوية في أنحاء الجزائر المسلمة، فأرجعت لها إسلامها وعروبتها، ومن هؤلاء الذين نذروا أنفسهم في الإصلاح المبارك وهذه الدعوة السليمة وتمحضوا لهذا العمل عن قدرة وكفاءة : الشيخ مبارك الميلي)[61]

وهكذا فقد ارتبطت الانطلاقة النشطة للخطاب الإصلاحي عند الشيخ مبارك الميلي بتأسيس مشروع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الحادي والثلاثين من شهر مايو عام واحدٍ وثلاثين وتسعمائة وألفٍ بنادي التّرقّي بمدينة الجزائر[62]. أما عن السنة التي انطلق فيها الإصلاح والتجديد في الجزائر، والدعوة إلى الكتاب والسنة، فقد (حددها الشيخ مبارك الميلي، فقال إنها سنة 1343 الهجرية)[63].

4. الصعوبات التي واجهت الخطاب الإصلاحي :

لقد تزامنت بوادر (انطلاق الخطاب الإصلاحي مع استلام الجبهة الشعبية "الأحزاب اليسارية" الحكمَ في فرنسا، عندما أصبح موريس فيوليت حاكما عاما على الجزائر في العام الخامس والعشرون وتسعمائة وألف الميلادية 1925م، حيث تظاهر هذا الحاكم باتخاذ إجراءات إصلاحية في الجزائر، فمنح الجزائريين حق التمثيل والانتخاب وإصلاح التعليم، وألغى المحاكم الخاصة بالجزائريين، ثم أصبح المشروع يدعى (باسم: "مشروع بلوم فيوليت، وفي عام 1936م لوّحت فرنسا للجزائريين بمشروع "بلوم فيوليت"، الذي ينتقد السياسة الفرنسية السابقة، وبالرغم من تعديل هذا المشروع، إلا إن جمعية العلماء المسلمون الجزائريون قد وقفت منه موقف المتحفظ، ولقي ترحيبا من قِبَل بعض السياسيين الجزائريين، ورفضه الفرنسيون المعمّرون في الجزائر، ولكن المشروع رفض في نهاية الأمر من قبل البرلمان الفرنسي[64]، وقد (أبدى موريس حينها استعدادا لتقريب الجزائريين إلى فرنسا من أجل اندماجهم تدريجيا)[65]، فعمل على تأمين حقوق بعض الجزائريين بنفس ما يتمتع به الفرنسيون من حقوق، رغم (معارضة المستوطنين من أصحاب السلطة الفاعلة، وقد رفض المجتمع الجزائري مشروع موريس في بادئ الأمر، لعدم التسوية بين الجزائريين والفرنسيين، ولأن المشروع لم يأخذ الدين واللغة بعين الاعتبار عند تهيئة الطبقة المثقفة للإدماج، ثم عدّل المشروع بلزوم الحفاظ على الشخصية الإسلامية، ثم تقدم المشروع سنة 1935م لمداولات البرلمان الفرنسي[66]

ونتيجة رفض المشروع من قِبَل البرلمان والمستوطنين، أجهض ذاك المشروع قبل أن يكتمل، فبدأ المصلحون في الجزائر بالتحرك أكثر وشاركوا في المؤتمر الإسلامي سنة 1936م، وطالبوا فيه باعتبار اللغة العربية لغة رسمية وبفصل الدين عن الدولة وتسليم شؤون المسجد إلى المسلمين، وبتأسيس كلية دينية لتعليم الدين الإسلامي بلسان عربي، كما طالبوا باستقلال القضاء[67]، وازداد تمسك الخطاب الإصلاحي أكثر بأصالة الجزائر وذاتها ودينها الإسلام ولغتها العربية، حتى يسهم في إحباط تلك المؤامرات الفرنسية المتتالية من أجل سحق الهوية الجزائرية وخاصة تلك الداعية سنة 1936 إلى أن الجزائر قطعة فرنسية، ويتم تمثيلها في البرلمان الفرنسي.

ولما (هبّ شعور الأمة وقوي، باحتياجها إلى فهم لغتها ودينها، وتطور التعليم الحر، أصدرت الإدارة الفرنسية قرارا يعتبر اللغة العربية اللغة أجنبية في بلاد عربية هي الجزائر، ووصل الحال إلى حد اقتياد معلمي اللغة العربية إلى مجالس القضاء، وتسجينهم أو تغريبهم)[68]

ولم تغفل السلطة الفرنسية أبدا عن مضامين الخطاب الإصلاحي، حيث بدأت تضيّق على أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وتشدد عليهم المراقبة منذ عام 1933م، وقد اتخذت السلطات الفرنسية هذه الإجراءات؛ لأنها أدركت خطورة الخطاب الإصلاحي على الاحتلال في نهاية المطاف، كما أنها شجعت الطرق الصوفية المنحرفة المتهاونة في أمر دينها والخاضعة للسلطات المحتلة، فأصبح الخطاب الإصلاحي في مواجهة تلك الطرق الصوفية، وفي هذا يقول الشيخ مبارك الميلي: ("لقد ثقل على من خفت موازينه من الطرقيين والقبوريين والمُرابطين نصح المشفقين وساءهم تحذير العلماء الناصحين فكادوا لهم مع الحكومة -يقصد بها حكومة الاحتلال الفرنسي- كي يوقعوهم في قبضتها، فسامت الحكومة العلماء بالترغيب والترهيب وعاملتهم بالشدة العملية واللين القولي، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، ثم حاول أولئك المستاءون صرف العامة عن علمائها، فلم ينقبضوا

عن الإرشاد، وأشد ما كانوا يثيرون عليهم الضجات عند تفسير الآيات"، وقد كان أصحاب هذه الضجة يقفون في الجامع ليرفعوا أصواتهم ضد المصلحين الوعاظ الذين يفسرون القرآن من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ مبارك الميلي)[69]، ففي عام (1933م منعت الحكومة -بقرار عامل عمالة الجزائر- مرشدي جمعية العلماء من إلقاء الدروس والخطب في المساجد، وقد تكرر الاحتجاج على هذا القرار مرارا فلم يُسمع للمحتجين المحقين صوت)[70].

وفي عام (1935م، أصدر مارسيل رينيه وزير الداخلية الفرنسي قرارا يقضي بتضييق الخناق على جمعية العلماء، وكل زعماء الحركة الوطنية بعد زيارة قام بها إلى الجزائر العاصمة بهدف الاطلاع على حالة الشعب الجزائري، ورغم ما عرفه من مجاعة وهضم للحقوق، فقد أصدر الوزير ذلك القرار بهدف إضعاف حركة العلماء ومن أمثلة هذا التضييق ما حدث في عام 1937م، إذ سجن الشيخ ناصر المدرس الحر ببلدية قرقور منطقة سطيف، وفي هذه السنة أيضا-في عهد الجبهة الشعبية- أدخل الشيخ الطيب العقبي من رجال الحركة البارزين سجن بربروس، وأغلقت الإدارة مدارس تابعة لجمعية العلماء في عمالتي قسنطينة ووهران ، كما أن الخطاب الإصلاحي قد تعرّض إلى تضييق شديد بعد أن ظهرت نتائجه الإيجابية الفعّالة، بالاتفاق مع التضييق على اللغة العربية وعلى معلّميها وعلى محفّظي القرآن الكريم، ففي (يوم 15 جانفي 1938م أغلقت سلطات الاحتلال دار الحديث بتلمسان، وهو أهم مركز من مراكز الحركة الإصلاحية، أما في يوم 8 مارس 1938م، فقد أصدرت الحكومة الفرنسية قرارا يقضي بتضييق دائرة التعليم العربي الحر، ومنع العلماء من التدريس إلا برخصة من الإدارة الاستعمارية في الجزائر، وهي الرخصة التي ترفض السلطات منحها للمعلمين التابعين لجمعية العلماء، وإذا كانت الحكومة الفرنسية قد منعت التعليم الحر بدعوى المحافظة على الصحة، فإن هذا الإجراء كان ضربة موجهة لتعليم العربية في المدارس، والقرآن في الكتاتيب) [71]

وما إن بدأ الخطاب الإصلاحي يرفع صوته، حتى ثارت عليه زوابع ممن سلكوا للشرك كل الذرائع وأشاعوا في العامة أنه يحكم على المسلمين بحكم المشركين[72]، أضف إلى ذلك أن الخطاب الإصلاحي، كان تحت الرقابة الاستعمارية، إذ ظل الاحتلال الفرنسي يخشى تحول هذه الدعوة الإصلاحية إلى دعوة تحررية، فكانت الحكومة الفرنسية تعمل على عرقلة النشاطات الإصلاحية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، إذ أوصدت المساجد في وجوه العلماء، وشحت برخص التعليم العربي القرآني، وأعملت أتباعها في شؤون المساجد والجمعيات الدينية وصورت رجال الجمعية بصورة الأعداء لتبعد عنهم كل من يعيش مع هذه الجمعية أو يرجو مصلحة لديها، وقد كتب الشيخ مبارك الميلي مقالا يوضح فيه العراقيل الاستعمارية، فقال: ("إن حكومة ميرانت لما تأكدت من رجحان كفة المصلحين في الجمعية أخذت تحاربها في أول مهدها، فانتقلت الجمعية في أول عام لها إلى الحرب مع الإدارة الاستعمارية، وانشغلت بذلك عن وضع البرامج العملية وتنقيح النظم الداخلية، ولكنها استفادت في حربها مع الحكومة في ميادين كثيرة من بينها خلق الثبات في أعضائها، وبث روح الشجاعة في المترددين من أنصارها واحترام الهيئات المفكرة الحرة لهاته الجمعية)[73]

إن تحسس الاحتلال الفرنسي الجانبَ السياسي في زعماء الإصلاح الديني، كان هو السببَ المباشر للتنكيل بأولئك الإصلاحيين... (إذ إن هذا التململ السياسي بأوجهه المختلفة لم يكن في حساب المحتل إلا خروجا عن الطاعة، وامتدادا للعصيان المسلح ومواصلة للتحدي... فكان الغاصب بالمرصاد لكل نفس إصلاحي لا يرخى له الزمام إلا لمفاجأته من مأمنه، فإذا أخذه لم يفلته، فتراوحت مصائر زعماء الإصلاح الديني والسياسي بين النفي والإبعاد والزج في السجون، والتدلي على أعواد المشانق، والاستشهاد غيلة في الميادين والساحات العامة في الوطن المستباح وبين أبنائه المقهورين)[74] .

خاتمة:

إن الخطاب الإصلاحي الذي تبنته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منذ عشرينيات القرن العشرين، ذو أبعادٍ دينية وتربوية واجتماعية وسياسية، أما الدينية فتمثلت في تعليم القرآن الكريم ونشر تعاليمه الصحيحة بين الناس، ومحاربة مظاهر الشرك والتلاعب بالعقل البشري، ونشر التخريف باسم الدين دون وجه علم مثبت، وأما التربوية فتمثلت في تعليم الناس، والتلاميذ مختلف الدروس العلمية والدينية وغيرها، بأساليب تقارب التعليم الحديث، وأما الاجتماعية فتمثلت في النشاطات الخيرية والرياضية ومختلف الأعمال التي تهم المجتمع وتعمل على ترقيته وتطويره، وأما السياسية، فتمثلت في محاربة كل أساليب الاستعمار في طمس الهوية الجزائرية أو محاولته إطفاء نور اللغة العربية المتوقّد في نفوس الشعب الجزائري، ومن ثم عملت الجمعية على المحافظة على ثوابت الأمة وبخاصة دينها ولغتها وهويتها الوطنية.

ونخلص في آخر المقال إلى جملة من النتائج نوردها في ما يأتي:

- ركزت الجمعية على الحفاظ على ثوابت الأمة الثلاثة: الدين، اللغة، الوطن.
- بالرغم من أنّ الإصلاح الذين أعلنت عنه الجمعية كان دينيا واجتماعيا بامتياز، إلا أنّ لم يغفل عن خطر الاستعمار الفرنسي.
- عملت الجمعية على إعداد المجتمع الجزائري ليكون قادرا على مواجهة الاستعمار بجميع أشكاله وكيفياته.
- كانت الجمعية قريبة من أفراد المجتمع الجزائري بكل أطيافه ومستوياته الاجتماعية والعلمية.
- شكّل الخطاب الإصلاحي نقطة تحوّل اجتماعي وديني في الجزائر، إلى أصالة الدين الإسلامي، والحفاظ على الأمة من التغريب ومخططات الاستعمار، وإرجاعه إلى صفاء الدين وتعزيز الوطنية لدى أفراد المجتمع.

الهوامش،

(1) صالح فركوس، المختصر في تاريخ الجزائر، من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م - 1962م) . دار العلوم للنشر والتوزيع عنابة، 2002م، ص83 و89

(2) - المرجع نفسه. ص93 و 96

(3). المرجع نفسه. ص100 - 102

(4)- المرجع نفسه . ص104- 108 وص 136- 137

(5)- بسام العسلي، الأمير الخالد الهاشمي الجزائري، انطلاقة الاستعمار من الجزائر إلى العالم الإسلامي . دار النفائس، بيروت، لبنان، 1984م، ص 15

(6)- عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية،1931 – 1945م. ص27

(7) - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره . دار المغرب الإسلامي 1983، ط 2، ج 3، ص 94

(8) - صالح خرفي، المدارس والمعاهد العليا، دورها في النهضة العربية لحديثة . المجلة الجزائرية للتربية، عدد 4، ص 58

(9) - عمار طالبي، المرجع السابق . ص 95 - 96

(10) - تركي رابح، الشهاب -لسان الإسلام والعروبة والوطنية في الجزائر (1925- 1935)- دورها في نهضة الجزائر الحديثة. مجلة الثقافة، عدد 81، ص 185

(11) - مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، مقدمة الكتاب لمحمد المبارك .دار الفكر، دمشق، سوريا، 1986م، ص9-10

(12)- Jurquet Jacquess, La révolution nationale algérienne et le parti communiste français . éditions du centenaire. E2 .Paris 1979 . P.20

(13) - الجيلالي صاري، محفوظ قداش، الجزائر في التاريخ، المقاومة السياسية 1900- 1954، الطريق الإصلاحي والطريق الثوري، ترجمة عبد القادر حراث . المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987، ص198- 199

(14) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق.ص 35 و41 - 42.
(15) - تركي رابح، المرجع السابق. ص186
(16) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 196
(17) - محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر. ج 1، ص 19
(18) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 188
(19) - محمد علي دبوز، المرجع السابق. ص 21- 22
(20) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 189- 190
(21) - المرجع نفسه . ص 190-191
(22) - لوثروب ستوتارد، حاضر العالم الإسلامي . تعليقات شكيب أرسلان. د ت، ج1، ص 259
(23)- عبد المالك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر. ص 45
(24) - تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس والحركة الإصلاحية السلفية في الجزائر. مجلة الثقافة، عدد 68، ص37
(25) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص390
(26) - المرجع نفسه. ص 54- 55
(27) - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ص 25
(28) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 55
(29) - صالح خرفي، المدارس والمعاهد العليا، دورها في النهضة العربية لحديثة . المجلة الجزائرية للتربية، عدد 4، ص37
(30) - البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، 1935م، ص 40
(31) - عبد الكريم بوالصفصاف، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931–1945م. ص 56
(32) - البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . المطبعة الجزائرية الإسلامية، قسنطينة، 1935م. ص 34
(33) - محمد العربي ممريش، مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية بين الحربين 1920– 1938م . مجلة الثقافة، عدد 85، ص205- 206 و 208
(34) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص61 - 62
(35) - صالح خرفي، المرجع السابق. ص 40
(36) - محمد الصالح الجابري ، المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية . مجلة الثقافة، عدد 102، ص23
(37) - تركي رابح، المرجع السابق .ص36
(38) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق.ص 85 – 86
(39) - المرجع نفسه.ص75
(40) - عبد الله العقيل، من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة. مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، عام 2001م، ص167
(41) - عمار طالبي، المرجع السابق ص 68
(42) - محمد العربي ممريش، مالك بن نبي والاتجاه الحضاري في الحركة الوطنية بين الحربين 1920– 1938م. مجلة الثقافة، عدد85، ص209
(43) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 121 و130
(44) - المرجع نفسه. ص 82 و137
(45) - البشير الإبراهيمي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. ص 40
(46) - تركي رابح، المرجع السابق. ص36
(47) - مبارك الميلي، رسالة الشرك ومظاهره . المطبعة الجزائرية الإسلامية، السنة 1937م، ط1 . ص 30
(48) - تركي رابح، ا المرجع السابق. ص 36
(49) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 190-191
(50) - محمد إبراهيم الكتاني، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ص 233

(51) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق . ص 87
(52) - مجموعة جريدة البصائر . السنة الأولى، ديسمبر 1935م- جانفي1937م. ص 23
(53) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 51- 52
(54) - مبارك الميلي، المرجع السابق. ص 36
(55) - صالح فركوس، المرجع السابق. ص207-208
(56) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 61- 62
(57)- صالح فركوس، المرجع السابق. ص332
(58) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق . ص 391 – 392
(59) - المرجع نفسه. ص 52
(60) - محمد العربي ممريش، المرجع السابق. ص206 - 208
(61) - محمد الصالح الجابري، المؤرخ الجزائري مبارك الميلي في الصحافة التونسية. مجلة الثقافة، عدد 102، ص29
(62) - عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر. ط 2، ص 239
(63) - مبارك الميلي، المرجع السابق. ص13
(64) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الجزائرية.معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، مصر، 1975م، ج،3. ص17
(65) - عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره . ج 3، ص 337
(66) - وزارة الشؤون الدينية، آثار الإمام بن باديس . ج 5، ص 314 و326 و379-380
(67) - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق. ص 283
(68) - صالح خرفي، المرجع السابق. ص 48
(69) - مبارك الميلي، المرجع السابق. ص 36
(70) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص 314
(71) - المرجع نفسه . ص 215- 217
(72) - مبارك الميلي، المرجع السابق. ص 13
(73) - عبد الكريم بوالصفصاف، المرجع السابق. ص137
(74) - صالح خرفي، المرجع السابق. ص36